الجمال والحضارة:

(مقاربة مالك بن نبي على الحضارة العربية الإسلامية –أنموذجا)

د. عباس شارف

كلية العلوم الإجتماعية، جامعة عبدالحميد بن باديس–مستغانم.

مقدمة:

حينما نبحث للقيمة الجمالية، داخل سياق العلاقات الإجتماعية وأشكال التعايش الحضاري، عن دور تؤديه ووظيفة تقوم بها، فإننا نكون بإزاء الحديث عن القيمة الجمالية **كأسلوب وكشكل حضاري للتعايش، وكذوق عام** يطبع حياة المجتمع، وبالتالي تتم معالجتها وفق منهجية تختلف عن معالجة **القيمة الجمالية** كحدث معزول يجسده عمل فني ما أو موقف جمالي ما..ذلك أننا نكون أمام بحث يتجاوز أثر ونتائج القيمة الجمالية إلى البحث في **أصولها الثقافية والحضارية** داخل سياق العلاقات الإجتماعية التي تخص مجتمعا ما ونموذجه الحضاري التاريخي، الأمر الذي يتم من خلاله تبرير **تمظهرات القيمة الجمالية** في إطار تلك العلاقات التي يقيمها البناء الإجتماعي والحضاري، وتبرير **التعارضات والتناقضات** التي تنجم عما يمكن تسميته **بأزمة الذوق الجمالي** من خلال التعارض الظاهري بين القيمة الجمالية ومختلف القيم الإجتماعية الأخرى التي تشكل **سلم قيم** المجتمع.

ولا يخفى على دارس فلسفة الفن والجمال أن البحث في القيمة الجمالية وعلاقتها بالقيمة الأخلاقية من الناحية الأكاديمية يقوم على التمييز الإستيطيقي بين **الجميل والنافع** منذ المرجع الأساسي "الكانطي" ونعني به كتاب إيمانويل كانط "نقد ملكة الحكم" من منطلق أن الأخلاق مرتبطة بالفضيلة وأن الجمال مرتبط بالذوق، ذلك أن ملكة الحكم الجمالية تقوم على حكم الذوق الذي هو"ليس حكما معرفيا، وبالتالي ليس منطقيا، بل حكم جمالي، وهو ما يعني أن أساسه المحدد لا يمكن أن يكون إلا ذاتيا."[1] كما أن ملكة الحكم الغائية"موضوعية وعقلية، وليست مجرد ذاتية جمالية".[2]

وربما تعد كتابات أفلاطون حول وظيفة الفن داخل المجتمع بدايات التفكير الفلسفي الممنهج في وظيفة الفن وعلاقته "الضرورية" بالأخلاق والمجتمع، وهو الذي كان يجعل للفن وظيفة أخلاقية محددة تتمثل في التهذيب والسمو بالإنسان. يقول "لا تنس أن الشعر لا يباح في الدولة إلا في تسبيح الله ومدح الصلاح."[3] ويعد صراع الفلسفة مع الشعر، أو مسألة إبعاد الشعر من المدينة، التي تحدث عنها أفلاطون في كتاب "الجمهورية" **المظهر الفكري** لأزمة الفن في علاقته بالأخلاق والمجتمع. فلا يكفي ان يكون الشعر سارا، وهو حكم الفن عامة، بل نافع.[4]

وستتناول دراستنا ضمن هذا الإطار **مقاربة مالك بن نبي** للقيمة الجمالية ودورها الإجتماعي ووظيفتها الحضارية ضمن مشروعه الحضاري الخاص بنهضة المجتمع العربي الإسلامي، متتبعين في ذلك الكشف عن **أدواته المنهجية** في معالجة هذه الظاهرة، حتى يتسنى لنا فهم **الظاهرة الجمالية** ضمن سياقها الإجتماعي والحضاري **كإتجاه جمالي** يطبع حضارة ما.

يتبين لنا من خلال تتبع منحى الظاهرة الجمالية أو مضمون القيمة الجمالية وتعيناتها التاريخية في مختلف أطوارها داخل الحضارة، كما ترصدها تحليلات مالك بن نبي، أن هذا المنحى أو هذا المضمون يتحدد وفقا للشكل التالي: **قيمة– ذوق عام– إتجاهجمالي** وهو ما يشكل من وجهة مفهومية "**المفهوم الحضاري الموسع للجمال**" عند مالك بن نبي.

1– القيمة الجمالية و مفهوم الجمال:

في المقام الأول تكون القيمة الجمالية مُعطىً ثقافيا إذ كما يقول مالك بن نبي إن المجتمع ينتج، مهما تكن درجة تطوره، بذورا أخلاقية وجمالية نجدها في عرفه وعاداته وتقاليده. وطبيعي أنه بقدر ما تكون ثقافة المجتمع متطورة، فإن البذور الأخلاقية والجمالية تكون أقرب إلى الكمال، حتى تصبح، بالتالي، القوانين المحددة التي يخضع لها نشاط المجتمع، والدستور الذي تقوم عليه حضارته. إن الثقافة في صورتها الحية، تشكل وحدة متماسكة تحددها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه وأذواقه وتاريخه. [5]

إن القيمة الجمالية أو الجمال قي سياق مفهوم مالك بن نبي يمثل جزئية من المفهوم ولا يمثل المفهوم كله بحيث يمكننا أن ننعت مفهوم الجمال في مشروع مالك بن نبي الحضاري بـ" **المفهوم الحضاري الموسع للجمال**" وعليه سندرك أن مفهوم الجمال في هذا الإطار يصبح **شكلا** له **مضمون(=متعدد القيمة)**

تعتبر القيمة الجمالية جزئية من جزئيات الثقافة وعنصرا من عناصرهاعلى إعتبار أن الثقافة هي"الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعا للغاية التي رسمها المجتمع لنفسه."[6] وبما هي دستور تتطلبه الحياة العامة"[7]. ولا يخفى على أحد دور وتأثير الجمال في تشكيل حضارة مجتمع ما فإن تأثيره، كما يقول مالك بن نبي،"فعام يمس كل دقيقة من دقائق الحياة." [8] أو كما يقول، فإن"الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي ان نلاحظه في نفوسنا، وأن نتمثل في شوارعنا، وبيوتنا، ومقاهينا، مسحة الجمال نفسها التي يرسمها مخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي."[9]

والقيمة الجمالية، ككل قيمة، لا تكون ذات فاعلية إلا إذا ركبت نفسيا في النفوس وصارت دستورا للذوق الجمالي والسلوك. وذلك من خلال توجيهها بأن نضمنها في طريقة تربيتنا في نشر الذوق الجمالي نحو تحقيق الذوق العام الذي يطبع حياة مجتمعا ما. ضمن عملية التوجيه الخاصة بالثقافة وتركيب قيمها في النفوس، كما يتحدد ذلك في نظرية الثقافة عند مالك بن نبي:

1-التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الإجتماعية

2-التوجيه الجمالي لتكون الذوق العام

3-التوجيه العملي لتحديد أشكال النشاط العام

4-التوجيه التطبيقي[10]

وإنطلاقا من مفهومه للتربية كعملية تثقيفية تاخذ القيمة الجمالية بُعدا تربويا "فهي تسهم في خلق نموذج إنشائي متميز يهب الحياة نسقا معينا، واتجاها ثابتا في التاريخ بفضل ما وهب من أذواق وتناسب جمالي."[11]

ب-القيمة الجمالية والذوق العام:

إن الهدف من توجيه القيمة الجمالية وتحديد مقاييس للحكم الجمالي والإستجابة الجمالية بما يتوافق مع مقاييس ثقافة المجتمع هو بناء الذوق العام الذي يسم حياة مجتمع ما فيتحول ذلك إلى سلوك جمالي عام من خلال خلق نوع من التماثل والتناسق في السلوك الجمالي والإستجابة الجمالية يكون مقياسها"يجب أن يثيرنا أقل نشاز في الأصوات، والروائح، والألوان، كما يثيرنا منظر مسرحي سيء الأداء."[12] "فالبذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل، وتوخيا للكريم من العادات."[13]

وعليه يمكن القول بأنه إذا كانت الثقافة في شكلها الراقي الخالية من كل أفكار وأنماط سلبية للسلوك، هي الحضارة، فإنه، أيضا، الذوق العام الخالي من كل توجهات سلبية هي الجمال الذي هو مظهر من مظاهر حضارة مجتمع. فحينما يقول مالك بن نبي "إن الجمال هو وجه الوطن في العالم"[14] فإن أحد المظاهر التي يتضمنها معنى قوله هو أن هذا المجتمع من خلال تحقيقه للقيمة الجمالية(الذوق العام) يكون قد بلغ نمطا حضاريا حيث أصبحت تمثل القيمة الجمالية أسلوبا حضاريا يتماشى مع مختلف جزئيات أسلوب ونمط حياة ذلك المجتمع، وأن الفاعلية الإجتماعية في تفعيل القيمة الجمالية، داخل المجتمع، هي في أوج عطائها وتمظهرها، وأما إذا افتقر إلى تحقيق تلك القيمة(الذوق العام)، فحينها يكون مفتقرا للفاعلية الجمالية ولتمظهراتها الحضارية المختلفة وللتوحد الجمالي الذي هو مظهر أساسي من مظاهر الحضارة. الأمر الذي يسمح لنا بالقول، إن ما هو حضاري يُعد جمالي بالضرورة(حضاري=جمالي) إنطلاقا من **المفهوم الحضاري الموسع للجمال** عند مالك بن نبي.

ج-الإتجاه الجمالي:

حينما تسلك حضارة معينة إتجاها جماليا فيعني هذا أنها إتخذت للقيمة الجمالية تصنيفا ينسجم مع أهدافها وغاياتها ومقاييسها الذاتية. وحينما نلقي الضوء على الإتجاه الجمالي الذي سلكته الحضارة العربية الإسلامية نجد أن هذا الإتجاه يتسم بلون من الخصوصية داخل المعادلة

الحضارية من خلال المكانة التي تتخذها القيمة الجمالية داخل هذه المعادلة من خلال توجيه القيمة الجمالية داخل ثقافة المجتمع وبإيعاز منه، فكما يقول مالك بن نبي فإن توجيه القيمة الجمالية يتأثر بترتيبها في سلم القيم داخل المجتمع. وبعلاقتها في مركب الحضارة.[15]

إن الطابع الذي يأخذه الإتجاه الجمالي داخل الحضارة العربية الإسلامية ليس جماليا محضا بل يأخذ بُعدا أخلاقيا إن لم نقل طابعا أخلاقيا وهذا راجع كما يقول مالك بن نبي لتصنيف القيمة الجمالية في سلم قيم هذه الحضارة بما يترتب على ذلك من سلوكات وقيم ومقاييس للذوق الجمالي. ولطالما إختلط البحث في الجمالي بما هو أخلاقي في الثقافة العربية الإسلامية وذلك إنطلاقا من الوظيفة الأخلاقية المناطة بالفن داخل هذه الثقافة. لكن ما تأصيلات هذا التداخل في الثقافة العربية الإسلامية حتى لا يبدو الأمر وكأنه خطأ إبيستيمي في البحث؟

يؤكد مالك بن نبي على أن هناك صلة بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال، تكون في الواقع علاقة عضوية ذات أهمية إجتماعية كبيرة. إذ إنها تحدد طابع الثقافة كله، وإتجاه الحضارة حينما تضع هذا الطابع الخاص على أسلوب الحياة في المجتمع وعلى سلوك الأفراد فيه. فالحياة في مجتمع معين تتخذ لها إتجاها عاما ولونا شاملا، يجعلان جميع تفاصيلها مرتبطة بالمبدأ الأخلاقي وبذوق الجمال الشائعين في هذا المجتمع. ونتيجة هذه العلاقة تأتي أولا في ترتيب خاص يقدم أو يؤخر المبدأ الأخلاقي على ذوق الجمال في سلم القيم الثقافية، حتى يتمكن نموذج معين من المجتمع وعليه تكون المعادلة التالية.

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = إتجاه حضارة [16]

ويرى مالك بن نبي أن هناك نموذجين من المجتمع، نموذج يقوم فيه النشاط أساسا على الدوافع الجمالية ونموذج يقوم فيه النشاط على الدوافع الأخلاقية.[17] وهذا الإختلاف الأساسي ليس إختلافا شكليا، إنه يؤدي إلى نتائج تاريخية ذات أهمية كبيرة. فالنموذجان اللذان يختلفان بسبب هذا لا يتطوران في إتجاه واحد، بل إنه في بعض الظروف تنشأ بينهما متناقضات جذرية، حتى إن الأمر الذي لا يريد أحدهما تحقيقه بسبب أخلاقي، نرى الآخر يحققه بسبب جمالي. ويقدم لنا مالك بن نبي مثالا لنموذجين حضاريين هما النموذج الحضاري الإسلامي والنموذج الحضاري الغربي:

1- إن المجتمع الغربي قد مارس، من بين فنونه، فن التصوير وتصوير المرأة العارية على الخصوص بسبب الدافع الجمالي بينما لا نرى الفن الإسلامي قد خلف آثارا في التصوير كذلك الذي نشاهده في متاحف الحضارة الغربية لأن الرادع الأخلاقي، في المجتمع الإسلامي لا يطلق العنان للفنان أن يعبر عن كل ألوان الجمال وعلى الخصوص المرأة العارية.

2- إن تطور الملابس في المجتمع، قد حاول إبراز جمال المرأة في الشارع بكل ما يمكن أن يوضح مظهره بينما نجد أن تطور الملابس في المجتمع الإسلامي قد إتخذ إتجاها مخالفا فهو يخفي جمال المرأة في الشارع.[18]

وليس يعني هذا أن الثقافة الإسلامية تفقد عنصر الجمال، وإنما تضعه في مكان آخر في سلم القيم. فكل ثقافة تتضمن عنصر الجمال وعنصر الحقيقة غير أن عبقرية أحدهما تجعل محورها الجمال بينما الأخرى تفضل أن يكون محورها الحقيقة.[19] وقد لا يبدو ذلك غريبا فإن البحث في قيام الحضارة وانحلالها يؤكد جوهرها الأخلاقي مهما كان تأثير الذوق الجمالي ودوره ووظيفته داخل الحضارة."فالتقدم الأخلاقي هو جوهر الحضارة حقا."[20] وهو ما يتجسد في سيطرة العقل أو الروح على ما هو غريزي. وهو ما يعني"تطور الإنسان إلى مرحلة من التنظيم الأعلى وإلى مستوى أخلاقي أسمى."[21]

وإن هذا الإختلاف بين الثقافتين الإسلامية والغربية يعود إلى أصول بعيدة، فالثقافة الغربية قد ورثت ذوق الجمال من التراث اليوناني والروماني، أما الثقافة الإسلامية فقد ورثت الشغف بالحقيقة من بين ميزات الفكر السامي. فكان رواد الثقافة الغربية وحملة لوائها زعماء الفن من فيدياس إلى ميخائيل أنجلو بينما قادة الثقافة الإسلامية أنبياء من إبراهيم إلى محمد عليهما السلام. وقد كان لهذا الإختلاف في الأصول البعيدة للحضارتين أثر فيما ينتجه الفكر في كل حضارة منهما. والأكثر من هذا يرى مالك بن نبي أن كل ثقافة سيطرة هي في أساسها ثقافة تنمو فيها القيم الجمالية على حساب القيم الأخلاقية. وعليه يمكن القول إننا أمام إتجاهين، إتجاه الفن للفن وإتجاه الفن الملتزم. إن هذا كما يقول مالك بن نبي، يبين الأهمية التي ينبغي أن نعيرها لعناصر الثقافة ليس فقط بالنسبة لقيمها الفردية في مركب الحضارة، ولكن بالنسبة لعلاقاتها في هذا المركب.[22]

الفنون الجميلة:

ومن هنا تأتي الفنون الجميلة إستجابة لذلك الموقف وتعبيرا عن ذلك الإتجاه وتحقيقا لغاياته المنشودة، حيث تبرز أهمية الفن الجميل في أحد موقفين: فهو إما داع إلى الفضيلة، وإما داع إلى الرذيلة، فإذا ما حددت الأخلاق مثله، وغذى الجمال وحيه، فينبغي عليه أن يحدد هو وسائله وصوره الفنية للتأثير في الأنفس. فإذا ما فهمنا الفن على الصورة الأخلاقية فإننا نستطيع أن نوسع نطاقه حتى يشمل طريقة المشي في الشارع، وكيفية شرب الماء، وكيفية التثاؤب في المجتمعات العامة. إننا نرى في الفن الجميل دخلا حتى في الصور التي تختار لأطفالنا الصغار في كتبهم المدرسية.[23]

إن من جملة معاني ما يتضمنه طرح مالك بن نبي أن الجمال هو الشكل او الإطار العام للسلوك الحضاري داخل المجتمع. والأخلاق هي مضمون ذلك السلوك الحضاري داخل المجتمع. يلزم عن هذا أن **القيمة الجمالية هي قيمة حضارية وثقافية، ولأنها كذلك فهي تتحدد بالإتجاه العام الذي تسلكه الحضارة في التاريخ.**

الإتجاه الجمالي وأزمة التأصيل في علم الجمال:

هذا البحث في الإتجاه الجمالي الذي سلكته الحضارة العربية الإسلامية لم يجد تأصيلات في البحوث الفلسفية المعاصرة لعلم الجلمال في الفكر العربي المعاصر، وتستوقفنا في هذا الصدد دراسة لسعيد توفيق بإعتباره أحد المتخصصين في علم الجمال وتكاد تعبر دراسته عن الرؤية الإستطيقية الرسمية للبحث الأكاديمي فيما يتعلق بعلم الجمال حيث تعكس دراسته غياب تلك التأصيلات التي تحدثنا عنها بخصوص الإتجاه الجمالي داخل الحضارة العربية الإسلامية.

ينطلق سعيد توفيق في بحثه من مسلمة أساسية في علم الجمال وهي أن القيمة الجمالية مستقلة ومتميزة ماهويا عن القيمة الأخلاقية، وذلك من خلال المجهودات الشاقة لإستقلال الإستطيقا كعلم فلسفي حديث. ويشير سعيد توفيق في دراسته بعنوان "تهافت مفهوم علم الجمال الإسلامي" أن الكتابات المعاصرة حول مفهوم علم الجمال الإسلامي، وإن يعترض على المفهوم في هذه الدراسة، لن نجد فيها شيئا من البحث المقارن، بين منطق كل من القيمة الجمالية والأخلاقية أو تمييز بين محتواها النوعي. فلن نجد سوى خلط بين الظاهرة الجمالية والظاهرة الأخلاقية، بل توحيد بين "ما هو جمالي" و"ما هو أخلاقي" بصورة ساذجة يتم فيها فهم الجميل والأخلاقي بإعتبارهما يشيران إلى السلوك المستحب الذي يحث عليه الدين.[24]

وهذا الفصل الذي يقيمه سعيد توفيق هو عكس ما نلاحظه لدى مالك بن نبي، هو فصل على مستوى النظرية الجمالية قد لا يفيدنا كثيرا في البحث في تأثير القيمتين في سلوك الفرد وإن كانت تفيدنا في تبرير القيمة الجمالية من منظور فلسفي محض. والتي لا تفيد البحث في القيمة الجمالية إلا في نطاق ضيق هو نطاق الإستطيقا، أي البحث في القيمة الجمالية للعمل الفني. برغم المادة الفكرية القيمة التي رصدها في كتابه لكثير من المفكرين الذين ربطوا بين القيمة الجمالية والقيمة الأخلاقية إلا أن رؤيته المنهجية التي تحكمت في البحث والمستمدة من المفهوم المجرد للإستطيقا جعلته يسفه كل تلك الآراء التي لم تكن تخلو من مضمون ذي قيمة سلوكية برغم من إبتعادها المنهجي عن أصول ومبادئ الإستطيقا وتقديراتها الفنية والفلسفية للقيمة الجمالية. ونحن يمكن أن نرصد ذلك التهافت الذي أشار إليه سعيد توفيق، كالتالي، إن تلك الآراء وقعت في التهافت من حيث محاولة بناء مفهوم إسلامي لعلم الجمال بتجريده من أصوله الفلسفية والنظرية. أي بحث أبعد ما يكون عن البحث الفسلفي التجريدي المتماسك. أما من حيث المحتوى لما جاء به هؤلاء فهو متصل بالسلوك بالدرجة الأولى. هذا المضمون مرتبط بأصول تراثية وثقافية خاصة بالثقافة العربية الإسلامية. في حين أن سعيد توفيق، إنطلاقا من رفضه المطلق للجمع بين القيمتين الجمالية والأخلاقية، حاول معالجة هذا التهافت وإبرازه من الناحية الأولى فحسب، الأمر الذي آسر رؤيته المذهبية في التهافت المنهجي وإن كنا نوافقه عليه إلا أن إنصرافه عن تقييم محتوى تلك الآراء لا يمكننا أن نوافقه عليه.

وينطلق في بحثه من جملة من الإشكاليات، وكما نلاحظ يغلب عليها الطابع المنهجي المتصل بأصول علم الجمال. هل يمكن إلتماس علم للجمال في تراث الفكر الإسلامي؟ هل يمكن إستلهام علم للجمال من الخطاب الديني الإسلامي؟

وفي دراسته يحدد سعيد توفيق ثلاثة مستويات للخلط بين القيمة الجمالية والقيمة الأخلاقية:

أ- الخلط بين القيمة الجمالية والقيم الأخلاقية والإجتماعية:

ويتخذ هذا ثلاثة مظاهر:

1- الخلط بين الجميل والأخلاقي:

وهنا يسجل كما تقدم خلط بين الظاهرة الجمالية والظاهرة الأخلاقية، بل توحيد بين "ما هو جمالي" و"ما هو أخلاقي" بصورة ساذجة يتم فيها فهم الجميل والأخلاقي بإعتبارهما يشيران إلى السلوك المستحب الذي يحث عليه الدين.

2- الخلط بين الجميل والأخلاقي المتخذ بُعدا إجتماعيا:

وذلك من خلال ربط مفهوم الجميل بالمفهوم الأخلاقي في دلالته الأكثر إتساعا والتي تتعلق بالسلوك الإجتماعي في جوانبه المتعددة،[25] فيما يأتيه الفرد من محاسن السلوك كالعفة والشرف وغيرهما.

3- الخلط بين مفهوم الجمال ومفهوم اللذة الحسية:

يختلط مفهوم الجمال أحيانا لدى بعض الكتاب بمفهوم الأخلاقي منظورا إليه من زاوية الغريزة الحسية وعلى وجه التحديد الغريزة الجنسية، ولهذا فهم يحذرون من إقتصار مفهوم الجمال على اللذة الحسية.

وفي رأي سعيد توفيق لا مبرر لهذا الخلط، أيضا، كون الإختلاف بين المفهومين أمر مفروغ منه لأنه من المبادئ الأولية لعلم الجمال وهذا لا يعني إلا شيئا واحدا هو غياب التمييز بين مفهوم الجمال واللذة الحسية.[26]

ب-الخلط بين البحث الجمالي والبحث في الكونيات:

هذا الخلط يتحدد بربط مظهر الجمال بالتناسق الكوني الذي يشيد به القرآن الكريم، والذي يتوق إليه الإنسان في تأمله والتوحيد بين الشعور الجمالي والتأمل الكوني. وفي إعتقاد سعيد توفيق لا مبرر لذلك كون أن هناك إختلافا كبيرا بين أن نتناول مفهوم الجمال في سياق علم الجمال، وأن نتناوله في سياق البحث في الكونيات. فالجمال الذي يكون موضوعا لبحث علم الجمال هو الجمال الفني الذي يمكن أن نتناوله من حيث إختلافه عن الجمال الطبيعي، ومن حيث أسلوب إبداعه وتذوقه ونقده. أما مفهوم الجمال الذي يرد في سياق البحث في الكونيات يعني النظر إلى آيات الجمال في الكون من حيث هي دليل على إعجاز الخالق وقدرته.[27] وهو فصل كما رأينا منهجي محض.

ج- الخلط بين البحث في علم الجمال ومستوى البحث في جماليات الفن الإسلامي:

في إعتقاد سعيد توفيق أن هذا الخلط لا داعي له ولا مبرر له من زاوية أن مستوى البحث في جماليات الفن الإسلامي أو فن خاص ما خاص بشعب أو حضارة ما، هو مستوى النقد الفني، أما مستوى علم الجمال فإنه يتجاوز جماليات فن حضارة ما أو شعب ما على البحث في جماليات الفن بوجه عام أو جماليات نمط فني بإطلاق، وهو لا يبحث في جماليات فن ما إلى على سبيل التوضيح والتمثيل.[28] ونرى الكاتب هنا لا يزال متشبثا بالتحديدات المنهجية المجردة وما يؤكد ذلك التشبث الصارم قوله" فيلسوف الفن أو عالم الجمال إذن قد يرجع إلى أمثلة من فنون الحضارات أو القوميات ليبرهن على مبادئه العامة، أو ليبين لنا آساليب مختلفة من التعبير عن هذه المبادئ العامة. والناقد بدوره قد يرجع إلى المبادئ العامة عند عالم الجمال ليطبقها على فن حضارة ما، وينظر إلى الفن في ضوئها. ولكن المبحثين لا يستويان: فعين عالم الجمال أو فيلسوف الفن تكون موجهة نحو ما هو عام من المبادئ العامة، أما عين الناقد فتكون موجهة نحو ما هو خاص. فدراسة خصوصيات فن حضارة ما هو أمر يخرج عن نطاق إهتمام علم الجمال بإعتباره علما فلسفيا."[29] ونقرأ له أيضا" أي كتابات في مجال جماليات الفن الإسلامي مهما بلغ حظها من الجدية والعمق، فإنها ستظل خارج حدود علم الجمال، لأن علم الجمال كعلم فلسفي لا يتعلق إلا بالبحث فيما هو عام في الفن أو بما هو عام في نمط فني بإطلاق، اعني في الشعر بإطلاق...فإذا أردنا أن نتحدث بلغة هذا العلم وفي نطاق مباحثه شديدة التعميم، وهذا يعني أننا ينبغي أن نتجاوز البحث في جماليات الفن الإسلامي."[30]

د- الخلط بين علم القيمة والنظرة التقييمية للعلم:

ويتحدث سعيد توفيق في هذا الصدد عن تدخل النظرة التقييمية لعلم الجمال والتي تأتينا في الغالب من النظرة الدينية، حيث نكون أمام نظرة تقييمية لعلم الجمال وليس أمام البحث في قيمة الجمال.[31]

وينتهي الكاتب في خاتمة بحثه إلى انه لا جود لعلم الجمال إذا قصدنا به أنه كان متحققا بالفعل في التراث لفكري الذي أبدعه المسلمون، وأنه لا وجود له إمكانا إذا قصدنا به أنه من الممكن أن يستمد أو يستلهم من النص أو الخطاب الديني الإسلامي.[32] ولعله يدرك جيدا أن مفهوم الوعي الجمالي مختزل في الوعي الإستيطيقي قد لقي نقدا جذريا في بيئته الفكرية والثقافية من أمثال هيدجر وغادامر وماركيوز...

خاتمة:

يتضح مما سبق أن ربط الذوق الجمالي أو الوعي الجمالي بالبعد الأخلاقي في الثقافة العربية الإسلامية، وهذا ما يقرره مالك بن نبي كإتجاه للوعي الجمالي، ليس إرتباطا مبرره أخلاقي فحسب، بل جمالي وثقافي حضاري معا يرجع بأصوله إلى عمق الثقافة العربية الإسلامية وتفاعلاتها الفكرية والثقافية في سبيل تحقيق ذاتها وهويتها، وأن المسألة ليست مجرد إختزال الجمالي في الأخلاقي، أو العكس، أو مصادرة الأول للثاني، إنما هو وعي جمالي مركب ينم عن تفاعل ثقافي وحضاري في مسيرة وتعين تاريخيين.

وإذا كان صحيحا لا وجود لعلم جمال إسلامي من وجهة نظر إستيطيقية فإنه لا شك أن هناك إتجاه جمالي يطبع الحضارة العربية الإسلامية يصنف القيمة الجمالية تصنيفا خاصا وهو ما يطبع الذوق العام الجمالي داخل الحضارة العربية الإسلامية. وهو ما يعني أننا مازلنا بحاجة إلى تأصيلات "إستيطيقية فلسفية" للإتجاه الجمالي الذي سلكته الحضارة العربية الإسلامية متحررة من النظرة الإستيطيقية الصارمة التي نشأت بتأثير من العقلانية الغربية، ومتحررة من إيديولوجيا إختزال ما هو أخلاقي لما هو جمالي من خلال تقديم معابر ثقافية وحضارية لذلك التلاقح والتواصل.

الهوامش:

1 –كانط، "نقد ملكة الحكم"، تر: سعيد الغانمي، كلمة –منشورات الجمل، أبو ظبي– بيروت، 2009 ، ص124

2– المصدر نفسه، ص298

3–أفلاطون،"الجمهورية"، دار الأندلس، بيروت، ص 441

4–أنظر: المصدر نفسه، ص442

5– مالك بن نبي، "شروط النهضة"، دار الفكر، دمشق 1985، ص100

6– المصدر نفسه، ص85

7– المصدر نفسه،86

8 – المصدر نفسه،93

9– المصدر نفسه، ص 94

10– المصدر نفسه، ص 87

11– مالك بن نبي، "مشكلة الثقافة"، دار الفكر، دمشق 1984، ص109

12– مالك بن نبي، " شروط النهضة"، مصدر سابق، ص 94

13– المصدر نفسه، ص 91

14– المصدر نفسه، ص 94

15 أنظر: المصدر نفسه، ص 104 و105

16– المصدر نفسه، ص 101

17–المصدر نفسه، ص.ن

18– المصدر نفسه، ص 102

19– المصدر نفسه، ص.ن

20– اشفيتزر، "فلسفة الحضارة"، دار الأندلس، بيروت 1983، ص36

21- المرجع نفسه، ص 37

22– مالك بن نبي، " شروط النهضة"، مصدر سابق، ص ص103- 105

23– المصدر نفسه، ص ص 125- 127

24–سعيد توفيق، "تهافت مفهوم علم الجمال الإسلامي"، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 63

25 – المرجع نفسه، ص64

26– المرجع نفسه، ص68

27– المرجع نفسه، ص ص71-72

28– المرجع نفسه، ص77

29– المرجع نفسه، ص78

30– المرجع نفسه، ص81

31– المرجع نفسه، ص84

32– المرجع نفسه، ص87